# ثقافتنا «الجديدة»

ما أَشْطرنا في عدم تحمّل المسؤوليّة!

كنّا في الأحزاب، لأنّنا كنّا ضدّ الأنظمة البيروقراطيّة والفاسدة والمستبدّة. ثم صرنا في «المنظّمات غير الحكوميّة» المموَّلة خارجيّاً لأنّنا صرنا ضدّ الأحزاب، لبيروقراطيّتها وفسادها واستبدادها. ولكنّنا حين صرنا في المنظّمات غير الحكوميّة المموَّلة خارجيّاً، سكَتْنا عن خطايانا الجديدة، وأكْملنا شتْمَنا للأنظمة والأحزاب معًا. لم نَقُلْ لأحدٍ لماذا صار «الختانُ» وحده هو شغلَنا الشاغلَ، أو اللاجئون وحدهم هم دينَنا ومعبودَنا، أو المرأةُ، أو الأطفالُ، أو محوُ الأميّة، أو المعوَّقون، أو «حلُّ النزاعات بالطرق السلميّة.» ولم نَقُلْ لأحدٍ لماذا تحوّلْنا من دعاةٍ للثورة والكفاح المسلّح والتغيير الجذريّ إلى مناصرين لـ«قضايا المجتمع المدنيّ!»

في الأحزاب كنّا نَدْحش دحشًا، في كلّ وثيقةٍ نُصْدرها، شيئًا عن المرأة، والبيئة، والمعوَّقين، والديموقراطيّة، لكي لا يَظنَّ الآخرون أنّنا متخلّفون. وأحيانًا كثيرة كانت كلُّ هذه الأمور تأتي في هامش أو مقطع أو مقطعيْن، فترتاح ضمائرُنا علنًا، قبل أن نَقْمع نساءَنا، ونوسّخَ الحدائقَ العامّةَ، ونصفَّ سياراتنا في الأماكن المخصّصة للمعوَّقين، ونغتالَ خصومَنا بالمؤامرات. ولكنّنا حين صرنا في «مؤسّسات المجتمع المدنيّ» المموَّلة خارجيّاً بات كُلُّ أمرٍ من تلك الأمور هو «النصّ» بأكمله، ورُحْنا ـ كي لا نُتَّهم بالتخلّي عن وطنيّتنا ـ نَدْحش دحشًا كلَّ الأمور الأخرى في هامش أو مقطع أو مقطعيْن: الحقوق الجماعيّة والظلم التاريخيّ... دون أن نَذْكر ـ ولو مجرَّد ذكْر ـ الكفاحَ المسلّح والإمبرياليّةَ الأميركيّة والأنظمةَ الرجعيّة والصراعَ الطبقيّ والثورةَ والتحريرَ، وكأنّ العالم بات عادلاً بعد إنشائنا لتلك المؤسّسات العظيمة أو بعد دخولنا فيها. لقد صار همُّنا «الحريّة»... لا التحرير!

كما انخرط بعضُنا في مؤسّسات العولمة (كالبنك الدوليّ بشكل خاصّ) ورُحنا نفشّط على الجميع بأنّنا نَسْتعمل هذه المؤسّسات لمصلحة الدول الفقيرة. اللهُ أكبر! وصدَّقْنا أنفسَنا حتى ذهبنا إلى أنّ العولمة هي مجرّدُ تعبير جديد عن «الأمميّة،» وأنّها ـ على عيوبها (فنحن موضوعيّون نُقرّ بسلبيّات العولمة!) ـ أمرٌ واقعٌ لن يتغيَّر إلاّ «بالتفاعل مع مقتضيات العصر.» حلوه دي!

وتخلّى بعضُنا الآخر عن المنابر الثقافيّة الفقيرة والمستقلّة، وذهبْنا إلى منابر دول النفط الكبرى. لماذا؟ لأنّنا، كما قُلْنا لأنفسنا وللآخرين، نريد أن نَخْترقها من الداخل؛ نريد أن «نُبَعْبِصَ» فيها خدمةً لقضايانا العادلة. أو أَقْنعْنا أنفسَنا (والآخرين؟) بأنّنا نَعْمل في منابر فرنكفونيّة لأنّنا ضدّ الأميركان وضدّ الأصوليّة الإسلاميّة وضدّ «النظام السوريّ والعراقيّ والليبيّ...» وضدّ «العروبة القديمة.» ولكنْ غَضَضْنا النظرَ عن إسهام فرنسا الأساسيّ في مشكلاتنا الجوهريّة (من استعمارنا عشرات السنين، إلى دعم إنشاء دولة «إسرائيل،» وانتهاءً بالمشاركة في ضرب العراق وحصاره)، وغَضَضْنا النظرَ عن مختلف الظواهر المسيحيّة الأصوليّة والمعادية للعروبة (قديمةً وجديدةً) وعن «النظام الفلسطينيّ» الذي لا يقلّ فسادًا وانتهاكًا للديموقراطيّة واستسلامًا عن كلّ الأنظمة العربيّة الأخرى.

وبعد ذلك نَنْظر حولنا، ونقول: «العمى! سيَضْربون العراقَ، وسيَطْردون الفلسطينيّين، وليس مَنْ يتحرّك!» ولكنّنا لا نَسْأل أنفسَنا ماذا فعلنا نحن حتى صار الوضعُ بهذا البؤس والتعتير. نهاجم الأنظمةَ لأنّها «لا تهمُّها إلاّ مصالحُها الضيّقة،» ولكنّنا نبرِّر ـ بل ونتباهى ـ بأنّنا قَبِلْنا مواقعَنا الجديدةَ هذه من أجل بناء ثقافة جديدة!

تُرى، متى نُدْرك أنّنا مسؤولون نحن أيضًا عن هذه الهزيمة؟ متى نُدْرك أنّنا لسنا أفضلَ من الأنظمة والأحزاب إنْ نحن واصَلْنا الكذبَ والفهلوةَ واختلاقَ التبريرات التي لا تُقْنع أحدًا، حتى لو أراحتْ ضمائرَنا... وجيوبَنا؟

**سماح إدريس**